مجلة العلوم الإنسانية
Journal of Human Sciences
www.Suj.sebhau.edu.ly ISSN 2707-4846
Received 05/01/2020 Revised 06/03/2020 Published online 30/06/2020

تحليل الخطاب عند (ابن قتيبة)، تأويل مختلف الحديث أنموذجاً

فاطمة حسن حاجي خميس و *عادل محمد يوسف الناجم
قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية–كلية الآداب–جامعة سبها، ليبيا
*للمراسلة: ade.annajem@sebhau.edu.ly

الملخص تهدف الدراسة إلى بيان بعض طرق تحليل الخطاب عند بعض العلماء العرب في القرن الثالث الهجري، والذي يعد ابن قتيبة أحدهم، وذلك من خلال ما طرحه من نظرات في مجال تحليل الحديث النبوي الشريف، استخدم فيها منهجًا لغويًّا للوصول إلى المعنى الذي يراه يوفّق بين الأحاديث التي قد تبدو متعارضة في ظاهرها، أو غير منسجمة، بحسب اصطلاح الدراسات الحديثة، ليزيل هذا اللبس أو التعارض بينها، في كتابه تأويل مختلف الحديث، وتمّ الكشف عن وجوه التأويل للحديث النبوي التي اتبعها ابن قتيبة، والطرق الإجرائية التي أسهمت في إنتاج خطابه، في الكتاب المذكور، استنادًا إلى النظرات التي وردت في الدراسات اللغوية العربية في العصر الإسلامي، وإلى ما جاءت به النظريات اللغوية الحديثة من تدعيم لكثير من أسس تحليل النصوص التي أقرّها اللغويون العرب في مناهجهم.
الكلمات المفتاحية: تحليل، الخطاب، النص، القصد، الدلالة.

The Analysis of Discourse at (Ibn Qutaybah), tawil mukhtalif alhadith as a Model

*Adele Mohammed Yousef Ennajem & Fatima Hassan Haji Khamis
Department of Arabic, Faculty Arts, Sebha University, Libya
*Corresponding author: ade.annajem@sebhau.edu.ly

Abstract The study aims to show some ways of analyzing the discourse among some Arab scholars in the third century AH, which is Ibn Qutaiba, through his interpretation in the field of prophetic hadith, in which he used a linguistic approach to reach the meaning that he sees combining hadiths that may appear contradictory in Apparent, or inconsistent, according to the terminology of modern studies, to remove this confusion or contradiction between them, in his book Interpretation of the Various Hadiths, and the faces of the interpretation of the prophetic hadith that Ibn Qutaiba was followed, and the procedural methods that contributed to the production of his speech, in the aforementioned book, were based on The looks given in idle studies Arabism in the Islamic era, and to the support of modern linguistic theories in support of many of the foundations of the analysis of texts endorsed by Arab linguists in their curricula.
Keywords: analysis, Descourse, Text, Intent, Indication.

المقدمة:

تُعدّ الدلالة الغاية التي يطمح محلّل النص للوصول إليها، وقد شغلت العلماء العرب الذين تصدّوا لفهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ بوصف انشغالهم بالمعنى نتيجة طبيعية لأمرين، أولهما: محاولة فهم النص القرآني والحديث النبوي الشريف، والأمر الثاني الدفاع عن الإسلام وبيان وجهة النظر الصحيحة تجاه كثير من القضايا، خاصّةً التي أُثيرت في العصر الإسلامي الأول، ومنها على سبيل المثال (قضيّة الإعجاز القرآني)، التي تُعدّ، أيضًا، جزءًا من محاولة فهم القرآن الكريم، كونه معجزة لغوية للنبي _ ﷺ _ .

تندرج هذه الدراسة ضمن البحث الدلالي في الدرس اللغوي، حيث تهدف، إلى التعرّف على كيفية تعامل بعض العلماء العرب (ابن قتيبة)، مع تحليل الخطاب، ويبدو أن فهمهم للخطاب يحكمه أمران، يهتمّ الأول بالعلاقات بين العلامات اللغوية، وينظر الثاني في العلاقة بين اللسان والعالم. ويقتضي هذا أن تهتم الدراسة في بعض جوانبها بالنظرية البنيوية على مستويين، المستوى الداخلي، الذي يتمثل اللغة نظامًا رمزيًّا، والنظام الخارجي المتمثّل في اللغة رموزاً وعلامات ضمن نظام علاميّ شامل، بحسب بعض الاتجاهات اللسانية. فالنظر إلى مفردات اللغة بوصفها علامات يحكمها نظام، يختلف عن نظرة علم الدلالة فقه اللغوي التاريخي، الذي يُغلّب الجانب النفسي في تناوله للعلامات اللغوية، إذ الرؤية السليمة للعلامة اللغوية، بحسب النظر البنيوي، هي كونها نظاماً رمزيًّا [1]، ويشير بعض الباحثين إلى أن اللسانيين هم الأفضل تسلّحًا لمعالجة الصلات التي تقوم بين لسان ما والعالم،...، وبصورة عامة، معاينة الطريقة التي يُمارس فيها الاتصال بين الناس، في الوقائع، آخذين بعين النظر الظروف كافة [2].

إضافة إلى النظرة البنيوية، فإن الدراسة تنهج، من زاوية أخرى، في تحليلها، نهج لسانيات النص، من حيث اهتمام هذا المجال النصي بمقصد المتكلم، واحتسابه معياراً من معاييره؛ فالتحليل، كما سنلاحظ، في هذه الدراسة يعتمد **القصد**

عنصراً رئيساً من قبل منتج النص(ابن قتيبة)، ومدلول **القصد**، كما يقرّ بعض اللسانيين، "جزء من دلالة النص،...؛ ولذا فإن أي نص يخلو من القصد لا يرقى إلى مرتبة الخطاب، وبالتالي لا يقوى أن يحافظ على انسجامه الداخلي، أو علـــى منطقه الذاتـــــي، وسيفقد في النتيجة توجهه الإيصالي" [3]، وعليه فإنّ الخطاب النبوي الذي يمثل مدوّنة للتحليل في هذه الدراسة يعتمد على عنصر القصد في الخطاب؛ من حيث إنه يمثل في بعده الوظيفي غرضاً تواصلياً أساساً.

كل العناصر السابقة يمكن إجمالها في الوظيفة التداولية للخطاب، فهي عناصر تشكل مجتمعة بعداً تأويلياً يهدف إلى التأثير في المتلقي، وتقويم فهمه للخطاب، وهي الغاية التي تقع ضمن دائرة المنهج التداولي في تحليل الخطاب.

اهتم بعض الباحثين العرب بدراسة علم الدلالة العربي، وبيّنوا كثيراً من القضايا المتعلقة به؛ وعليه فلن يتمّ النظر في هذه الدراسة إلى هذا الجانب [4]، وسيولي البحث اهتماماً للكشف عن الآليات التي استخدمها ابن قتيبة للوصول إلى هدفه من تأليف الكتاب، معتمدين في إدراك هذه الغاية على نصوص ابن قتيبة نفسه في كتابه تأويل مختلف الحديث●. نتبع في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلـــي، من حيث الابتعاد عن التقييم وإصدار الأحكام، فالهدف من الدراسة بيان أوجه التحليل عند ابن قتيبة ووضعها في دائرة النظر اللغوي في الدرس الحديث.

الدلالة عند ابن قتيْبة:

تتبنـّـى هذه الدراسة فرضيّة تزعم أنّ العلماء العرب كانوا يستخدمون كثيراً مـــن آليات تحليل النصوص بشكل منظَّم؛ بغية فهمها وشرحها، وبغض النظر عن مدى توْفيق العلماء في تحليلهم وشرحهم للنصوص، فإنّ منهجهم في هذا الجانب يستحق الدراسة والنظر، وعليْه فإنّ المنظور الوظيفي التداولي للغة يمكن أن يكون إطاراً شاملاً للنظر في الحديث النبوي الشريف من هذه الجوانب، وذلك من حيث انطلاق الوظيفية من مبدأ: أنّ المتكلم إنسان مختار، وأنه يحمّل اختياراته وظائف محدّدة في خطابه؛ ولذلك فإن أتباع المدرسة الوظيفية يُركزون على وظيفة الاتصال في اللغة، من جهة، ومن جهة ثانية، فهم يستخلصون هذه الوظيفة من الآثار الظاهرة التي تمثل مختلف الاختيارات الفعلية للمتكلم في عباراته [5]. وهو ما يحاول ابن قتيبة الوصول إليه في كثير من تحليلاته، فعنصر **اختيار المتكلم**، بوصفه منتجاً للخطاب" النبي _ﷺ_ "، حاضر في تحليل ابن قتيْبة للأحاديث النبوية الشريفة. إضافة إلى أن ابن قتيْبة، كما سيظهر من تحليلـــه، يُسهم فـــي بلورة مفهوم الخطاب، كما تتصوّره اللغويّات الحديثة، للحديث النبوي الشريف، بواسطة آليات التحليل التي استخدمها، وهي تتوافق، إلى حدٍّ بعيد مع الآليات التي يروم استخدامها محلّلو الخطاب في الدراسات اللغوية المعاصرة [6]، إنّ خطاب المعارضين، الذي بنى عليه ابن قتيْبة كتابه، يُعطي مشروعية النظر من زاوية **تحليل الخطاب** للحديث النبوي الشريف.

اعتمد ابن قتيبة في توْجيه مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة على فهم السياق بشكل عام، وهو ما يعطينا مشروعيّة النظر البنيوي في هذه الدراسة، وتلتقي هذه النظرة مع ما يقرّره بعض اللغويين من أنه" ينبغي التعامل مع النصوص الشرعية تعاملاً كلياً، ولا يجوز عزلها عن سياقاتها الداخلية. ولذا ينبغي النظر إلى القرآن على أنه نص كامل. والأمر نفسه ينطبق على السنة النبوية الشريفة. كما أنه لا يجوز فصل النصوص الشرعية عن سياقاتها الخارجية التي تشمل السنة كلها عند تفسير القرآن الكريم، والقرآن كله عند دراسة السنة، كما تشمل السياقات الخارجية أيضاً كل ما يعتقد بصلته بمراد الله _ تعالى_ ورسوله _ ﷺ _ ، ومن ذلك أسباب النزول، وطريقة العرب في التفكير، وشؤون العرب، وعاداتهم، ونحو ذلك. وقد اعتمد الأصوليون هذا المنهج لتجنب الأخطاء التي قد يقع فيها التحليل الذي يهمل السياق، سواء في ذلك التحليل المؤسس على الجملة أو على النص" [7].

ويقتضي هدف ابن قتيبة عدم الوقوف عند ناحية واحـــدة من نواحي السياق المتعددة، وإنما يشمل هدفه الاهتمام بجوانب مختلفـــــة منه؛ فمؤلف الكتاب لا يهتمّ بشرح النصوص بقدر ما يهتم بتوْجيهها كي توائم نصوصاً أخرى تُشكل مجتمعة الخطاب، ومن ثَمّ فالدراسة مـــن هذه الجانب تُعنى بالخطاب النبوي بشكل خاص، والخطاب اللغوي بشكل عام، وهنا يكمن الفرق بين هذا النوْع من الدراسات، وبين الدراسات التي تهدف إلى شرح النصوص وتحليلها في الحديث النبوي الشريف، أو في غيره من النصوص الأخرى؛ ذلك أنّ النظرة التي يقدمها ابن قتيبة مبنية على محاولة فهم **القصد** فـــي التحليل، يُفرّق بعض الفلاسفة بين نموذج القصد، ونموذج تارسكي المبني على الصدق والكذب، يقول الباحث:" يقتضي هذا النموذج[نموذج القصد] تأسيس الدلالة اللغوية على قصود المتكلمين، ...، ويحصل هذا النموذج ما فات نموذج " الصدق" من حيث كونه يجعل صدق القول موقوفاً على قصد " القائل" وقوفَ المشروط على شرطه الضروري". [8] فمنتج الخطاب التوفيقي (ابن قتيبة)، إنْ صحّت العبارة، يواجه إشكاليّات دلالية تظهر في صورٍ مختلفة، ومتنوّعة، ما يُعطي مبرراً للنظر التداولي في هذا البحث، فهي ليست إشكاليّات خطابيّة لغوية في بنية اللغة، يمكن وصفها بأنها

إشكاليّات نمطيّة، بحيث يواجه محلل الخطاب خطاباً يمتاز بالوضوح في بنيته. فالقصد في النوْع الأخير ليس بالوضوح نفسه، ولا تتبني عليه دراسة تحليل النصوص، غالبًا، كما نلاحظها عند محلّل الخطاب (ابن قتيبة)؛ فتغيّر الأهداف يستوجب، غالبًا، تغييراً في المنهج، ويمكن توضيح هذه النقطة بما أورده بعض اللسانيين في تفريقه بين المنهج التصوري في دراسة الدلالة، والمنهج التداولي في دراستها، حيث يقول الباحث:" تعطي الدلالة التصورية لنفسها مهمة دراسة الكفاية الدلالية للغة من اللغات. وإنها لتدرس بذلك المضمون الدلالي للنصوص، أي تدرس معناها " الحرفي" أو اللساني، بينما تدرس اللسانيات التداولية معنى العبارات من خلال العلاقة مع سياق التعبير" [9]، وممّا يترتب عن هذا الاختلاف أن" الدلالة التصورية" تدرس المضامين الدلالية بشكل مستقل عن صياغاتها التعبيرية"، بينما تدرس اللسانيات التداولية المضامين الدلالية انطلاقاً من ارتباطها بصياغاتها التعبيرية"[10].

ويتضح عند النظر في الكتاب اهتمام مؤلفه، في كثير من تحليلاته، ببعض الجوانب الوظيفية لبعض عناصر اللغة، فالعلامة اللغوية توظّف بحسب السياق الذي ترد فيه، وتكتسب دلالتها منه، ويهدف ابن قتيبة من خلال الكشف عن وظيفة تلك العناصر إلى البعد الدلالي التداولي؛ يظهر ذلك واضحاً في عنوان الكتاب؛ لذلك كان هذا المستوى مجال اهتمام النظر في هذه الدراسة، وهذا لا يعني عدم وجود بعض المستويات الأخرى في الكتاب، ولكن يغلب الظن، من خلال قراءة الكتاب، أنّ هذا المستوى هو الغالب عليه؛ الأمر الذي دعا إلى الاهتمام به في هذه الورقة البحثية.

كتاب تأويل مختلف الحديث:

يُعدّ كتاب (تأويل مختلف الحديث) لابن قتيبة واحداً من الكتب التي تتمتع بقيمة علميّة في مجالها، وقد بيّنَ ابن قتيبة في مقدمة كتابه سبب تأليف الكتاب الذي يتمثّل في أنّ أهل الكلام يُعيبون أهل الحديث، ويرمونهم بحمل الكذب ورواية المتناقض[11]، ومن ثَمّ فإن ابن قتيبة أراد من تأليف الكتاب ردّ الشبهات التي رُمي بها أصحاب الحديث النبوي الشريف، والانتصار لهم، بما يخدم الإسلام والمسلمين في هذا الجانب، وقد حاول مؤلّفه التوْفيق بين ما قد يبدو من أحاديث غير منسجم مع معاني بعض الأحاديث الأخرى أو متعارضاً في الظاهر معها، أو مع بعض آيات القرآن الكريم، أو مع بعض الوقائع، أو مع بعض المفاهيم التي يؤمن بها أفراد المجتمع في تلك المرحلة، وقد استُخدمت هذه الظواهر في الطعن في الحديث النبوي الشريف، ويبدو أنّ موْقف الطاعنين في الأحاديث مبنيّ في بعض جوانبه على تجربتهم، وهذه النظرة تتوافق مع بعض ما وصل إليه علماء اللغة حديثًا، إذ يرى بعضهم أنّ كل لسان يوافق تحليلًا خاصاً بمعطيات التجربة، ومعطيات التجربة هي ما يُشار إليها، في العادة، على أنه العالم الذي نعيش فيه [12]، ومن ثَمّ فإن الكتاب منبنٍ في بعض جوانبه على العلاقة بين عالم الخطاب وعالم موضوعاته، وهو الموْقف نفسه الذي سنلحظه، غالبًا، في تحليل النصوص عند ابن قتيْبة، ويجب التنبيه في هذا السياق إلى أنّ هذه الدراسة لا تُعنى بالدوافع الأيديولوجية، إن صحّ التعبير، من وراء إنتاج هذا الخطاب، بقدر ما تهتمّ باللغة وصفيًّا: تركيباً وتحليلًا؛ فالسياق الثقافي الذي أُنتج فيه الخطاب، الذي نروم دراسته وتحليله، تملؤه الصراعات والخلافات العقدية، وهي مسلّمة نراها لا تدخل في سياق هذا البحث.

ومن النظرات المهمّة في كتاب ابن قتيبة أيضاً، كونه يمتاز بالتطبيق العملي الذي يمكّنه من التوفيق بين قضايا، يظهر أنها متناقضة، من وجهة نظر منتجي الخطاب(المختلِف) من معارضي بعض نصوص الحديث النبوي الشريف، ما يعني أنّ ابن قتيْبة يعمل على معالجة ظواهر عُدّت مشكلةً في إنتاج خطابه، وهو يهدف من خلال خطابه إلى الوصول إلى توافق دلالي بين نصوص تنتمي إلى خطاب واحد، ويبدو في ظاهر تلك النصوص، بحسب المعارضين، افتقارها إلى الاتساق والانسجام، اللازمين لصحة الخطاب، وهي قضيّة مهمّة من حيث كونها معتمدة بشكل كبير على جوانب عمليّة في التحليل الدلالي، وليس على الجوانب النظرية منه.

إجراءات التحليل عند ابن قتيبة:

استخدم ابن قتيبة مجموعة من الإجراءات في تحليله للأحاديث النبوية، ويمكن تصنيف مظاهر التحليل عنده في الآتي:

1_ السياق:

ظهر الاهتمام بعنصر السياق في الثقافة الإسلامية جليًّا، حيث نجد اللغويين العرب قد تنبّهوا إلى عنصر السياق في كثير من مواقف تحليل النصوص، غير أنّ دراساتهم جاءت مبثوثة في ثنايا مصنفاتهم، وليست منتظمة من حيث بيان أهدافها أو من حيث الجوانب النظرية المتعلّقة بها؛ هذا بالنظر إلى كيفية استخدامها في الدراسات المعاصرة، ولكن النظرة إليها في سياقها التاريخي يُظهر انسجامها وتحقيق غاياتها المتمثلة في كفاية مناهجهم التفسيرية في المنظومة الفكرية الإسلامية، ومن الاهتمام بالسياق في الدراسات الإسلامية، على سبيل المثال،

دعوة الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى التفريق بين الجمل التـــي تختلف تراكيبها الظاهرية، حيث بيّن أنّ تلـك الجمل المختلفة التراكيـب تختلف معانيها باختلاف مواقع عناصرها، ويختلف التعبير بها بحسب المقامات المختلفة التي ترد فيها تلك التراكيب. [13] ويُعدّ منهج الجرجاني منهجاً متفرّدًا في الحضارة العربية الإسلامية، وكما يقول بعض اللغويين فإن الجرجاني كان يهدف إلى " تزويد المتلقي للأثر القرآني أو الشعري بأدوات تخوّل له القيام بالتأويل وإدراك جمالية الأثر الفنّي". [14] وعليه فإن بعض علماء التراث، وعلى رأسهم الجرجاني، كانوا يؤسسون رؤية منهجية لتحليل النصوص وتأويلها.

وفي الدراسات اللغوية الحديثة يُعدّ السياق عنصراً مهماً في تحليل النص، وقد نبّه عالم اللغة الإنجليزي في العصر الحديث **فيرث** إلى دور السياق؛ وهو ما جعله يركز على اللسانيات الاجتماعية، بوصف الاهتمام بالسياق اعتناء بالمقام الذي يعتمد بشكل واسع على النواحي الاجتماعية للنص، وقد عدّ بعض اللغويين السياق هو الفيْصل في تسجيل الاختلاف الدلالي[15]. يعني السياق، بشكل موسّع، عند بعض اللغويين:" ما يكون قبل الكلمة أو بعدها من كلمة أو عبارة أو منطوق طويل أو نص. ... والسياق يمكن أن يحدِّد أيضاً الموقف الاجتماعي العريض الذي تُستخدم فيه الوحدة اللغوية"16؛ وعليه فالسياق إمّا أن يكون داخلياً يتمثّل في العناصر اللغوية للنص، ما قبل وما بعد العنصر المراد(السياق اللغوي)، وإمّا أن يكون خارجياً يظهر في عناصر غير لغوية خارج النص(المرجع)، ويُبيّن بعض الباحثيـــن أن وظيفـــة السياق بنوعيه السابقين، تتمثـــل، غالباً، في فهم المعنى الدقيق للكلمة أو العبارة[17]، ما يعني أهميّة الاعتناء به في تحليل النص وبيانه؛ فـــ" حتى الوحدات الكلامية التي يبلغ حجمها حجم الجملة ... يمكن تفسيرها على أساس مقدار كبير من المعلومات السياقية المفهومة ضمناً في غالبيتها" [18]، وتكمن العلاقة بين النص والسياق في أنّ كلًا منهما متمّمٌ للآخر، فالنصوص مكوّنات للسياقات التي تظهر فيها، والسياقات يتم تكوينها وتحويلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتّاب في مواقف معينة [19]؛ ولذلك يمكن القول بأنّ ثمّة جدليّة بين النص والسياق.

يظهر دور السياق جليًّا في توْجيه المعنى عند ابن قتيبة، فقد استخدمه في توْجيه معاني أحاديث عدّة، وهو يبرز في هذه الدراسة بوصفه المرتكز الأساسي في التوجيه الدلالي عند ابن قتيبة. ويمكن النظر إلى استخدام ابن قتيبة للسياق من زوايا مختلفة تتمثل في الآتي:

أ – السياق اللغوي الداخلي: يعني السياق اللغوي الداخلي في هذه الدراسة توْجيه الحديث النبوي الشريف بواسطة لغته نفسها، وليس باستخدام عناصر أخرى خارجية، ففي قول النبيّ _ ﷺ_:" إنه لا يبقى على ظهرها يومئذ، نفسٌ منفوسةٌ" [20]. وهذا سنة مائة، وطُعن في معنى الحديث من جهة أنّ الطاعنين ما يزالون أحياء في سنة ثلث مائة والبشر أكثر ممّا كانوا في سنة مائة؛ فالظاهر أنّ الحديث النبوي، بحسب زعمهم، متعارض مع الواقع. يُشير ابن قتيْبة إلى أنّ الروّاة قد أسقطوا من الحديث حرفًا، إما لأنهـــم نسوه، أو لأن رسول الله _ ﷺ_ أخفاه، فلم يسمعوه، ولا يشكّ ابن قتيبة أنّ نص الحديث:" إنه لا يبقى على الأرض **منكم** يومئذ، نفسٌ منفوسةٌ" يعني من الحاضرين في المجلس، أو من الصحابة [21]. نلحظ من النص السابق أنّ ابن قتيْبة يرى أنّ توْجيه الحديث يتطلّب وجـــود كلمـــة (منكم) حتى يستقيم المعنى، فالسياق اللغوي من وجهة نظر ابن قتيبة لا يستقيم من غير وجود هذا العنصر اللغوي، ووجود هذا العنصر في النص يُزيل التعارض الذي كان قد تبادر إلى أذهان الطاعنين في الحديث، بالإضافة إلى أنّ ابن قتيبة يستعين بسياق لغويّ آخر من خارج الحديث مستخدماً منهج القياس، فهو يرى أن حديث النبي _ ﷺ_ يُشبه من هذا الجانب قول ابن مسعود، من حيث تشابه السياقين من وجهة نظره، فقد قال ابن مسعود في ليـــلة الجنّ:" ما شهدها أحـــد منا غيري" فأسقط الراوي كلمـــة **غيري**، وبإسقاط هذا العنصر اللغوي من النص ينتفي حضور أي من الحاضرين، وهذا المعنى يتنافى مع قول ابن مسعود؛ لأنّ ابن مسعود يعني أنه لم يشهد تلك الليلة أحدٌ غيـــره، ولم يعنِ نفي مشاهدة أي أحد من الحاضرين لها [22].

ويُشبه هذا ما ورد فـــي توْجيه حديث النبي _ صلى الله عليه وسلّم _ :" الشـــؤم في المرأة، والدار، والدابة" [23]. الذي رواه عنه أبو هريرة، فقد سمعته السيدة عائشة _ رضي الله عنها _ فكذّبت الحديث وفق هـــذه الرواية، وقالت إنما قال رسول الله _ ﷺ_ " **كان أهل الجاهلية يقولون**: الشؤم في المرأة، والدار، والدابة". ثم قرأت: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [24]. نلحظ من هذه الفقرة أنّ ابن قتيبة استعان في توجيه الحديث بما ذكرته السيّدة عائشة _ رضي الله عنها _ والذي ذكرت فيه عبارة: **كان أهـــــل الجاهليـــة يقولون**، وبوجود هذه العبارة في سياق الحديث يتبيّن أنه لا يوجد إشكال في دلالته.

يظهر ممّا تقدّم أنّ الاعتماد في توجيه دلالة الأحاديث السابقة، كان باستحضار بعض العناصر اللغوية التي غابت عن السياق، إما بسبب نسيان من الروّاة، وإمّا بسبب سهو منـــهم،

كما تتضح النظرة الشمولية في التحليل التي تبيّن أنّ التحليل يعتمد، أحياناً، النظر في الخطاب اللغوي، كي تُسهم في معرفة دلالية أكثر موْضوعيةً.

ومن السياق اللغوي، أيضـــاً، ما ورد عن النبي _ ﷺ_ أنه قال:" إن الشمس تطلع من بيـــن قرنيْ شيْطان، فـــلا تصلّوا لطلوعها"، قالوا[الطاعنون] فجعلتم للشيطان قروناً تبلغ السماء، وجعلتم الشمس التي هي مثل الأرض مـــرّات، تجري بين قرنيه. قال ابن قتيبة في شرح كلمة (قرون) التي وردت في هذا الحديث " ولم يُرِد عليه السلام بالقرن: ما تصوّروا في أنفسهم، من قرون البقر، وقرون الشاء. وإنما القرن _ ههـنا _ حرف الرأس، وللرأس قرنان: أي حرفان وجانبان" [25] نلحظ من الفقرة النصية أنّ ابن قتيبة رأى أن دلالة العلامة اللغوية (**قرن)** ليست الدلالـــــة الـــتي توهّمها الطاعنون، وابن قتيبة في شرح العلامة استخدم ظاهرة **المجاز اللغوي** التي تظهر بوضوح في قوله:" ولا أرى القرن الذي يطلع في ذلك الموضع، سمّي قرناً إلا باسم موْضعه، كما تسمّي العرب الشيء، باسم ما كان له موضعاً أو سبباً" [26]، ونجد ابن قتيبة يوجّه كلمة (قرن) توجيهاً معجمياً آخر، حيث يقول:" وكذلك قوله في المشرق:" مـــن ههنا، يطلع قرن الشيطان". لا يريد به، ما يسبق إلى وهم السامع من قرون البقر، إنما يريد" من ههنا يطلع رأس الشيطان". يتضح من هذه الفقرة أنّ كلمة قرن تعني رأس، وتوصّل ابن قتيبة إلى هذا المعنى للكلمة بواسطة ظاهرة المجاز أيضاً، إلى ذلك فقد وجّه ابن قتيبة كلمة قرن توْجيهاً آخر، حيث ذكر أن وهب بن منبّـــــه كان يقول في **ذي القرنين:**" إنه رجل من أهل الإسكندريـــة، واسمه **الإسكندروس** وأنه كان حلُمَ حلماً، رأى فيه أنه دنا من الشمس، حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها". فقصّ رؤياه على قومه، فسمّوه **ذا القرنين،** وأراد بأخذه بقرنيها، أنه أخذ بجانبيها" [27]. وعليْه فإن دلالة العلامة اللغوية قرن في هذا السياق تعني الجانب.

يظهر ممّا سبق أنّ ابن قتيبة لم يستعِن بالسياق الخارجي، وإنما وجّه معنى العلامة الواردة في الحديث بحسب العرف اللغوي العربـــي، فتوْجيه الحديث تَمّ بواسطة توْجيـــه الكلمـــــة معجمياً(المجاز) ودعّم توجيهه بأقوال أخرى، وهو استخدامٌ للسياق اللغوي الداخلي، ويمكن النظر إلى تحليله من زاويتين، الزاوية الأولى، قوله: ما تصوروا في أنفسهم. والتصوّر في النفس يُفضي بنا إلى الجانب النفسي في التفسير اللغوي للمفردات، وهو ما تبنّته في الدرس الدلالي الحديث مدرسة فقه اللغة التاريخي، كما مرّ بيانه، ومن زاوية ثانية: نلحظ استخدام ابن قتيْبة ظاهرة المجاز المتمثّلة في سوْق دلالة أخرى باعتماده بعداً بنيوياً يروم النظرة الرمزية للعلامة اللغوية، بواسطة النظر في العلاقة الداخليّة للرموز مع بعضها من جهة في هذه الفقرة من الخطاب، وبين الرموز في علاقاتها مع بعضها في الخطاب اللغوي بشكل عام، كما تمثّله الاستعمال ظاهراً في سياقات أخرى.

ومن بين مظاهر السياق اللغوي في توْجيه الحديث النبوي، ما ذكره ابن قتيبة فـــي توجيه بعض الأحاديث، من حيث اعتماده **ضبط الفروق بين المصطلحات،** وهي مسألة تحتاج إلى إلمام بالفروق الدلالية بين العلامات اللغوية، من ذلك أنه ورد عن النبي _ ﷺ_ أنـــه تعوّذ بالله مـــن الفقر، وقال:" أسألك غِناي وغِنى مولاي"، وجاء في حديث آخر عن النبـــــي _ ﷺ_ أنه قال:" اللهم أحييني مسكينـــاً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين".

وقال:" الفقر بالمؤمن، أحسن من العذار الحسن، على خد الفرس". فهم بعض الطاعنين أن هناك تناقضاً بين الأحاديث، من حيث تعوّذه _ صلى الله عليه وسلم _ من الفقر، وبين دعائه في الحديث الثاني، ووصف الفقر بالمؤمن بأنه من الحسن، غير أنّ ابن قتيبة يرى أن في الحديثين الأول والثاني فارقاً في المعنى، بالاعتماد على الفرق اللغوي بين لفظتي: **فقير/ مسكين،** وذكر ابن قتيبة أن خطا المعارضين هو معارضتهم **الفقر بالمسكنة،** وهما مختلفان دلالياً، فمعنى المسكنة في قوله (احشرني مسكيناً) التواضع والإخبات، ويُضيف ابن قتيبة أنّ: المسكنة حرفٌ مأخوذ من" السكون"، يُقال:" تمسكن الرجل" إذا لَانَ وتواضع، وخشع، وخضع [28]. فإذا عُلِم هذا المعنى للمسكين اتضح الفرق بين الفقر والمسكنة، وهو ما تنبّه إليه ابن قتيبة، وساق الأدلّة عليه، والفروق الدلالية بين الألفاظ ممّا تنبّه العلماء العرب إلى دورها، فألفوا فيها المصنّفات، كما عند أبي هلال العسكري●.

يتضّح من ذلك أنّ ابن قتيبة وجّه معنى الحديثين، ووضّح دلالتهما وعدم تعارضهـــما، بواسطة لمح الفرق بين المسكنة والفقر. ويُعدّ فهم الفروق بين العلامات من الأبعاد الدلالية التي يمكن الركون إليها للوصول إلى معنى النص وفهم دلالته، فكما تمت الإشارة إلى رمزيّة العلامة، فإننا نضيف اعتباطيّة العلامة اللغوية، وأنها رهينة الاستعمال، فاستعمال العلامة في سياق هو الذي يُعيّن دلالة محدّدة من دلالات العلامة التي قد تكون دلالاتها متعددةً معجمياً.

وقد يستخدم ابن قتيْبة ظاهرة التوسّع الدلالي، إذ يُقرّ بعض اللغويين بأنّه في الممارسة العمليّة، تُحوّل الدلائل باستمرار رموزاً، ويُطعّم كل دليل برموز لا حصر لها [29]، ففي أحد

أحاديث الرجم يظهر أنّ تعارضاً يظهر بينه وبين قوله تعالى:﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [30]، وينفي ابن قتيْبة وجود تعارض بين الحديث والآية القرآنية، فالدلالة المتعارف عليْها، والتي ركن إليْها مُدّعو التناقض بين الحديث والآية، أنّ المحصنة: المرأة المتزوِّجة، ولكن ابن قتيْبة يُشير إلى أنّ المحصنة في سياق الآية القرآنية يعني بها: المرأة الحرّة في مقابل: الأمة. قال ابن قتيْبة:" وسُمّين محصنات، وإن كن أبكاراً، لأن الإحصان يكون لهنّ وبهن، ولا يكون بالإماء. فكأنه قال: فعليهن نصف ما على الحرائر من العذاب، يعني: الأبكار. وقد تسمّي العرب البقرة" المثيرة" وهي لم تُثِر من الأرض شيئًا؛ لأن إثارة الأرض تكون بها دون غيرها من الأنعام" [31]. ونلاحظ أن ابن قتيبة وجه دلالة المحصنات بواسطة توسيع المعنى، ويؤيّد ابن قتيبة رأيه في توْسيع دلالة لفظ المحصنات في هذه الآية، بالنظر في الخطاب القرآني، بواسطة آية أخرى وردت في موضع آخر، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ [32]. وعليْه نلحظ أنّ توجيه ابن قتيبة ركن في توْسيع الدلالة في نص الآية الأولى إلى الاستخدام العربي أوّلًا، ثمّ الاستخدام القرآني، وفي هذا إشارةً إلى أنّ دلالة المحصنة لا تستلزم كونها منحصرةً في المرأة المتزوّجة مقابل غير المتزوّجة، وإنما تشمل دلالتها المرأة الحرّة مقابل الأمة.

يتبيّن ممّا سبق أن ابن قتيْبة استعمل في توجيه بعض الأحاديث السياق اللغوي الداخلي، متمثلاً في تغيير معاني بعض الكلمات بحسب ما يقتضيه السياق، أو عن طريق المجاز، أو عن طريق فهم الفروق الدلالية بين الألفاظ، أو عن طريق ظاهرة التوسّع الدلالي، وهي نظرات، في مجملها، تتوافق والتحليل البنيوي للعلامة اللغوية، والنظر في تحليل الخطاب بشكل عام.

ب – السياق الخارجي (الخطاب، المرجع، المقام): يُقصد بالسياق الخارجي في هذه الدراسة، **استخدام ابن قتيبة أحاديث أخرى في تقوية حججه لتأويل الحديث الذي يشرحه، بعبارة أخرى توظيف سياق الخطاب النبوي لتوجيه الحديث وشرحه، وهذا لا يعني: الخطاب النبوي،** بشكل خاص، وإنما الخطاب الدينـــي بشكل عام، متمثّلًا في القرآن الكريم، وتفسيره، وقد يكون توْجيه الحديث بواسطة **اختلاف المقام،** أو بواسطة **اختلاف حال المرجع،** ويظهر في هذا النوع من التحليل الدلالي عند ابن قتيْبة نظرته إلى الخطاب على أنه كل موحّد.

ومن أمثلة النوْع الأول ما رواه أبو هريرة عن النبي _ ﷺ_ أنه قال: " إنّ الشمس والقمر ثوران مكوّران في النار يوم القيامة" فقال الحسن: وما ذنبهما؟ قال: إني أحدثك عن النبي _ ﷺ_ فسكت. قالوا: [أي: الطاعنون] قد صدق الحسن " ما ذنبهما" [33]. علّق ابن قتيبة على كلام الطاعنين بقوله:" إن الشمس والقمر لم يُعذّبا بالنار حين أدخلاهما، فيقال ما ذنبهما، ولكنهما خلقا منها ثم رُدّا إليها" [34]. نلحظ من تعليق ابن قتيبة نفيه لما زعمه الطاعنون، واستند في نفيه على سياقات لغوية وردت في أحاديث أخرى، فذكر ابن قتيبة قول " رسول الله _ ﷺ_ في الشمس _ حين غربت في نار الله الحامية _ :" لولا ما يزَعُها من أمر الله تعالى، لأهلكت ما على الأرض" وقال:" ما ترتفع في السماء قصْمة إلا فُتِح لها باب من أبواب النار، فإذا قامت الظهيرة فُتِحت الأبواب كلها". وهذا يدلّك على أن شدّة حرّها من فوْح جهنم؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:" أبردوا بالصلاة، فإن شدّة الحرّ من فوْح جهنم". فما كان من النار، ثُم رُدّ إلى النّار لم يُقَل: إنه يُعذّب" [35].

يتضّح ممّا تقدّم أنّ ابن قتيبة بنى نفيه تعذيب الشمس والقمر على أحاديث وردت عن النبي _ صلى الله عليه وسلم _ في سياقات أخرى، بمعنى أنّ ابن قتيْبة استخدم السياق اللغوي للخطاب النبوي، خارج الحديث الذي طُعِن فيه. وهذا يُنبّهنا إلى قضيّة لغوية مهمّة في توْجيه الحديث النبوي الشريف، وهي التوْكيد على أن الحديث النبوي الشريف بأكمله يحكمه سياق واحد، يستلزم النظر إليْه على أنه ذو سياق كلّي متكامل، كما يظهر الفرق واضحاً في توجيه هذا الحديث وتوْجيه الأحاديث في الفقرة السابقة، من حيث إن توْجيه الحديث في الفقرة الأولى كان على السياق داخل نص الحديث، وفي الثانية على السياق اللغوي خارج نص الحديث أي **الخطاب النبوي الشريف.** ويضيف ابن قتيْبة معرِّضاً بخطأ مَن فهِم الحديث على أنّه تعذيب للشمس والقمر، بقوله في السياق نفسه:" وما مثل هذا، إلا مثل رجل سمع بقول الله تعالى:﴿ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [36] فقال: ما ذنب الحجارة؟" [37]. وهذا توظيف لسياق لغوي خارج خطاب حديث النبي _ ﷺ_ وهو القرآن الكريم، وهو من ضمن توظيف الخطاب الديني.

يظهر من النصوص السابقة أنّ ابن قتيْبة أثبت خطأ فهم الحديث على الوجه الذي فهمه به الطاعنون فيه، وبيّن ذلك بواسطة استخدام القياس أيضاً؛ ليدلِّل على بعد فهمهم.

ومن وظائف استخدام السياق اللغوي للخطاب النبوي عند ابن قتيْبة، تقوية الحجة في تأويل الأحاديث، ومنه ما ورد في قوله _ صلى الله عليه وسلم _ :" قالوا رويتم أن النبي _ ﷺ_

قال:" منبري هذا على ترعة من ترع الجنة"، و" ما بين قبري ومنبري، روْضة من رياض الجنة" [38]. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى{14}عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [39]. ويقول تعالى: ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [40]. ورُويتم في غير حديث " أنّ الجنة في السماء السابعة"، وهذا تناقض بحسب زعمهم، ونلحظ في ردّ ابن قتيْبة استعانته بأحاديث أخرى تُشكل سياقًا لغويًّا خارجيًّا، فالعلاقات بين العلامات تمتدّ عند ابن قتيْبة لتشمل الخطاب النبوي عامّة، وليس جزءاً منه، فذكر ابن قتيبة أن النبي _ ﷺ_ لم يُرِد بقوله :" ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة" أن ذلك بعينه روضة، وإنما أراد أن الصلاة في هذا الموضع والذِّكْر فيه، يؤدي إلى الجنة، فهو قطعة منها، ومنبري هذا هو على ترعة من ترع الجنة، والترعة باب مشرعة إلى الماء، أي: إنما هو باب إلى الجنة" [41]. من هذه الفقرة النصيّة نلحظ أنّ ابن قتيبة لم يعتمد على الدلالة اللفظية الظاهرة للحديث، وإنما رأى أنّ مضمون الحديث لا يُحمل على دلالته اللفظية الظاهرة، وإنما يُحمل في مثل هذا السياق على **الاستعارة**، ولم يُصرّح ابن قتيبة بها، ولكن هذا ما يُفهم من سياق كلامه، وساق ابن قتيبة حججاً تدعم توْجيهه للأحاديث، والحجج التي ذكرها هي أحاديث وردت عن النبي _ ﷺ_ في سياقات أخرى، منها قوله عليه الصلاة والسلام:" ارتعوا في رياض الجنة" قالوا: وما رياض الجنة يا رسول الله؟ قال:" مجالس الذكر"، وهذا كما قال في حديث آخر:" عائد المريض، على مخارف الجنة"، والمخارف: الطرق، وأحدها مخرفة. ... وإنما أراد عيادة المريض تؤدي إلى الجنة، فكأنه طريق إليها. وكذلك مجالس الذكر، تؤدي إلى رياض الجنة، فهي منها" [42]. وعليه فإن ابن قتيبة وظّف نص الحديث الثاني الذي ورد فيه المركب الإضافي **رياض الجنة**؛ واستخدمه حجّة في التوجيه الدلالي للحديث، وعلى هذا النحو يستحضر ابن قتيبة السياق اللغوي للخطاب النبوي، ما يمكّنه من تقوية حججه في تأويل الأحاديث، كما يَستخدِم ابن قتيبة آلية الاستعارة لتأويل التراكيب غير المتحقّقة في الواقع؛ لأن من وظائف اللغة تقريب سياقات ووقائع غير موجودة في عالم الواقع؛ ليمكن تصوّرها من لدنّ المتلقي، وهو ما استخدمه النبي_ ﷺ_ في أحاديثه، ويعني ما تقدّم من جانب آخر، أيضاً، التوكيد على ما مرّ ذكره من أنّ ابن قتيبة يتعامل مع الحديث النبوي ككل بوصفه نصاًّ واحداً، وليس مجموعة نصوص لا تربطها أية علاقة.

وممّا جاء في هذا السياق أيضاً، قالوا: رويتم" أن النبي _ صلى الله عليه وسلم _ نهى عن الصلاة في أعطان الإبل، لأنها خلقت من الشياطين". فذكر ابن قتيْبة أن النبي _ ﷺ_ أعلمنا أنها في أصل الخلقة خلقت من جنس، خلقت منه الشياطين. ويستقي ابن قتيبة هذا الفهم من حديث آخر، وهو:" إنها خلقت من أعنان الشياطين"، يريد: من جوانبها ونواحيها، كما يُقال: بلغ فلان أعنان السماء، أي نواحيها وجوانبها [43]. جاء في بعض كتب غريب الحديث أنّ" العَنان بالفتح: السحاب،...، ويُروى" أعنان السماء": أي نواحيها، واحدها: عنَنٌ، وعَنٌّ". وأنّ النبي_ ﷺ_ " سُئِل عن الإبل، فقال: أعنان الشياطين" الأعنان: النواحي، كأنه قال إنها لِكثرة آفاتها كأنّها من نواحي الشياطين في أخلاقها وطبائعها"[44]، كما ورد في بعض المصادر أنّ "أعنان الشياطين: أي على أخلاقها وطبائعها" [45].

يتبيّن ممّا تمّ عرضه أنّ ابن قتيبة يستخدم ظواهر أخرى غير السياق العام للحديث النبوي (الخطاب النبوي)، تتمثّل بشكل عام في الاستعارة.

ومن توْجيه الحديث النبوي بحسب **المقام**، ما جاء عن النبي _ ﷺ_ أنه قال:" ليؤمكم خياركم، فإنهم وفدكم إلى الجنة، وصلاتكم قربانكم، ولا تقدموا بين أيديكم إلا خياركم". ثم روي عن النبي _ ﷺ_ قوله:" صلّوا خلف كل بَرّ وفاجر، ولا بد من إمام بَرّ وفاجر". وهذا تناقض، كما زعم بعض الطاعنين.

يرى ابن قتيبة ألاّ تناقض بين الحديثين؛ لأن **كلًّا منهما له مقام**، يقول ابن قتيبة:" للحديث الأول موضع، وللثاني موضع" [46]. والمقصود بالموْضع في هذا السياق **المقام**، ففي الحديث الأول " أراد أئمة المساجد في القبائل والمحال، وأن لا تقدّموا منهم إلا الخيّر التقي القارئ، ولا تقدّموا الفاجر الأمي"، وأما قوله في الحديث الثاني، فإنه يريد السلطان، الذي يجمع الناس، ويؤمهم في الجُمَع والأعياد يريد: لا تخرجوا عليه، ولا تشقوا العصا، ولا تفارقوا جماعة المسلمين، وإن كان سلطانكم فاجراً، فإنه لابدّ من إمام بر أو فاجر، ولا يصلح الناس إلا على ذلك، ولا ينتظم أمرهم"، وهو مثل قول الحسن:" لا بدّ للناس من وَزَعة" يريد سلطاناً يَزعهم عن التظالم والباطل، وسفك الدماء وأخذ الأموال بغير حق.[47].

نلحظ من هذه الفقرة أنّ ابن قتيبة تنبّه لاختلاف مقام الحديثين، وأن لكل حديث منهما مقامه الذي يظهر فيه معناه، فإذا وُضع كل حديث في مقامه زال التعارض بينهما، وهذا يُظهر جليًّا أنّ نسقًا واحدًا ينتظم الخطاب والسياق، بحيث يُصبح الخطاب، دلاليًّا، مرتهناً بسياقه، ويرى براون ويول حول النقطة ذاتها " أنه يتحتم على محلل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي ورد فيه مقطع ما من الخطاب" [48]، بل " إن فهم الأحداث الكلامية تتم في إطار الأرضية التي يوفرها السياق النصي السابق(...) فقد تأخذ السلسة نفسها من الكلمات " قيمة"

مختلفة عندما تصدر في سياق نصي مختلف" [49] ويرى هايمس" أن للسياق دوراً مزدوجاً إذ" يحصر مجال التأويلات الممكنة...ويدعم التأويل المقصود" [50].

يظهر ممّا تقدم مدى اتفاق الدراسات اللغوية العربية، متمثلة في خطاب ابن قتيبة، في تحليل الخطاب مع ما وصلت إليه اللسانيات الحديثة في المجال ذاته.

ومثله أيضاً من حيث الربط بين **الخطاب والمقام**، ما جاء في شرح حديثيْ النبي _ ﷺ_ حيث قال في الأول:" من قُتِل دون ماله فهو شهيد". وقوله _ ﷺ_ في حديث آخر:" كُنْ حِلْس بيتك، فإن دُخِل عليك، فادخل مخدعك، فإن دُخِل عليك، فقل: بوء بإثمي وإثمك، وكن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل، فإن الله تعالى ضرب لكم _ يا بني آدم _ مثلًا، فخذوا خيرهما، ودعوا شرهما". ذكر ابن قتيبة أن لكل حديث موضعاً، فمقام الحديث الأول، يُراد منه مقاتلة اللصوص عن المال، حتى يقتل المعتدى عليه في منزله، وفي أسفاره؛ ولذلك قيل في حديث آخر:" إذا رأيت سواداً في منزلك، فلا تكن أجبن السوادين"، يريد تقدّم عليْه بالسلاح، فهذا موضع الحديث الأول، كما ذكر ابن قتيْبة، وموضع الحديث الثاني، أي: افعل هذا في زمن الفتنة، واختلاف الناس على التأويل، وتنازع سلطانين، كل واحد منهما يطلب الأمر، ويدعيه لنفسه بحجّة[51].

يظهر من توْجيه الحديثيْن السابقين، أن ابن قتيبة قد **وظّف المقام** ليصل إلى دلالة الحديث، بحسب توجيهه، حيث إن الإلمام بالمقام يُعدّ جزءاً من فهم النصوص، وطريقًا إلى بيان دلالة الخطاب.

يتبيّن ممّا تقدّم أنّ ابن قتيْبة في الفقرتين السابقتين (أ، ب) وجّه الحديثين دلاليًّا بواسطة عناصر اللغة، فالنص يتكوّن من لغة ومحتوى ومرجع، وترتبط اللغة بالمحتوى في النص، فعندما يتغيّر معنى العلامة، المنتمية بطبيعتها (للغة) سيؤدّي إلى تغيّرٍ في المحتوى، وسيتّضح في الفقرة اللاحقة، دور اختلاف زاوية النظر في حال المرجع في تحليل الخطاب.

ومن توْجيه دلالة الأحاديث بالتوْفيق بينها اعتماداً على **حال المرجع**، ما ورد في حديث النبي _ ﷺ_ في فرك المني في موضع، وفي غسله في موضع آخر[52]، فقد فرّق ابن قتيْبة بين حال المرجع في الموْقفين (المني)، فحديث فرك المني في حال كون المنيّ يابساً، وفي حديث غسل المني في حال كونه رطبًا، فتغيّرُ حالِ المرجعِ استوْجب التعبير بدالّين مختلفين، ما يعني أنّ تغيّر المدلول يستلزم ضرورة تغيّر الدالّ، وهما: الفرك، والغسل، فليس ثمّة تناقض في الحكم كما توهّمه الزاعمون.

يتضح ممّا تقدم أن ابن قتيْبة وظّف السياق العام للأحاديث النبوية في فهم ما قد يبدو متناقضاً وتوْجيهه، كما نلحظ توْظيف المقام، واختلاف حال المرجع في فهم تلك الأحاديث، وإزالة ما قد يبدو بينها من تعارض واختلاف، فعمل ابن قتيْبة في كتابه هذا يمكن وصفه، بالمجمل، بأنه محاولة للتوفيق بين التعبيرية والتأويليّة [53].

ج _ السياق العام، الخلفية المعرفية: يُشير بعض اللسانيين إلى أن التماسك النصي الخاص بالمركّبة الخطابية" يكتمل في المركّبة التداولية بمتطلبات التناسق الذي يُدخِل في الاعتبار السياق بالمفهوم العام للكلمة، أي الوضع غير اللساني والمعارف الحاصلة من الكون" [54]. ومن ثَمّ فإن العلاقة بين الخطاب، بوصفه مُعطًى لغويًّا، وبين عالم الخطاب، بوصفه مرجعًا له، يمكن تمثلها في تحليل ابن قتيْبة. إذ يظهر من الفقرة النصية السابقة دور السياق العام في فهم المركّبة الخطابية، ويتضح من الفقرة أنّ هذا السياق يعتمد على **الوضع غير اللساني، والمعارف الحاصلة من الكون**، ويُشيـر بعض اللسانيين، كذلك، إلى أنّ المعنى حينما لا يكـون مدلولاً متضمّنًا في دالّ، فهو يمتزج بالتجربة التي يمتلكها كل منّا عن العالم [55]. وقد استخدم ابن قتيبة هذا العنصر في تحليل بعض الأحاديث، فقد ورد في كتابه أنّ الطاعنين قالوا:" رويتم عن رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ أنه قال:" لا عدوى، ولا طِيَرة". وأنه قيل له: إن النُّقْبة تقع بمشفر البعير، فتجرَبُ لذلك الإبل. فقال:" فما أعدى الأول"؟ قال: هذا أو معناه.

ثم رويتم في خلاف ذلك:" لا يوردن ذو عاهة على مصحّ. "

وفرّ من المجذوم، فرارك من الأسد".

وأتاه رجل مجذوم ليبايعه بيعة الإسلام، فأرسل إليه بالبيعة، وأمره بالانصراف، ولم يأذن له [بالدخول]● عليه.

وقال:" الشؤم في المرأة، والدار، والدابة".

قالوا: وهذا كله مختلف، لا يُشبه بعضه بعضاً" [56]. يُشير ابن قتيبة في معرض تحليله لهذه الأحاديث إلى عدم وجود تناقض بينها كما ادّعى الطاعنون فيها، وأشار ابن قتيبة، بداية، إلى حقيقة لغوية مهمة، تتمثل في قوله: إنه ليس في هذا اختلاف، ولكل منها وقت وموضع، فإذا وُضِع بموْضعه، زال الاختلاف" [57]. تُشير هذه الفقرة إلى قاعـدة بلاغية تتلخص في قول العلماء العرب" لكل مقام مقال"، وتحمل هذه القاعدة بُعداً تداوليًّا يظهر في ربط اللغة بمواقفها وسياقاتها التي أُنجزت فيها، وبالنظر إلى تحليل ابن قتيْبة نرى أنه يستخدم المعرفة الخاصة بالأمراض المذكورة ويبيّن طبيعة عدوى كل منها، مستعينًا برأي الأطباء في ذلك، فيقول:" والأطباء تأمر بأن لا يُجالس المسلول

ولا المجذوم" [58]. ومنَ استخدام ابن قتيبة معرفته في هذا الشأن قوله:" والعدوى جنسان: أحدهما عدوى الجذام، فإن المجذوم تشتدّ رائحته حتى يسقم من أطال مجالسته ومؤاكلته"[59]. يتبيّن من هذه الفقرة النصية استخدام ابن قتيبة لمعرفته الخاصة، كما تظهر استعانتـــه بالطب وآراء الأطباء، كوْن الأطباء أصحاب اختصاص في هذا السياق؛ فيشملهم السياق العام لتحليل ما يدخل ضمن اختصاصهم، ويقول ابن قتيبة مستخدماً معرفته الخاصة في توجيه معنى الأحاديث نفسها في سياق آخر:" وقد جعل الله في غرائز الناس وتركيبهم، استثقال ما نالهم السوء فيه، وإن كان لا سبب له في ذلك، وحب من جرى على يده الخير لهم وإن لم يردهم به، وبُغْض من جرى علـــى يده الشر لهم، وإن لم يردهم به" [60]. وفي موضع آخر يقول:" وهذا أيضاً، ممّا جعل غرائز الناس تستحبه وتأنس به، ... ولكن جُعِل في الطباع محبة الخير والارتياح للبُشرى، والمنظـــــــر الأنيق، والوجه الحسن، والاسم الخفيف" [61].

ممّا تقدم يمكن القول إنّ ابن قتيبة يستخدم المعرفة الخاصة في تحليل الخطاب وتوْجيهه، ويستحضر ضمن تحليله علوم ذوي الاختصاص ومعارفهم كي تُعينه على شرح الأحاديث وتوْجيهها دلاليًّا.

الخاتمة:

نستخلص من هذه الدراسة مجموعة من الملاحظات، المتمثلة في، جزء منها، بهدف عام، من حيث محاولة ردّ ابن قتيْبة شبهات الطعن في الحديث النبوي الشريف بوسائط متعدّدة، ويمكن أنْ نشير إلى أنّ ابن قتيْبة أراد، في كثير من المواضع، فهم الضرورات التي كانت عاملًا في إنتاج الخطاب النبويّ الشريف، بواسطة توْجيهه وفقًا لما يتلاءم والسياق الكلي الماثل في خطاب حديث النبي_ ﷺ_ بشكل عام، والقرآن الكريم، والفهم الاجتماعي لها، بشكل خاص، وهي قضيّة مهمّة في تحليل النص، لها علاقة بفهم مقصد منتج الخطاب. والهدف الخاص يتمثل في الكشف عن بعض المفاهيم المهمّة التي كانت ماثلة في تحليل الخطاب في التراث الإسلامي، وهي مفاهيم كانت تطبيقاتها حاضرة في ذهن ابن قتيْبة، بوصفه متلقيًّا للخطاب، من جهة أولى، ومحلّلًا وشارحًا له من جهة ثانية. وإن لم يُشِر إلى تلك المفاهيم صراحة، غيْر أننا نعتقد حضورها في خطابه، مثل مفهوميْ: مصالح العباد، ومقتضيات الأحوال[62]، وهما مفهومان يمكن عدّهما ضمن الرؤية التداولية في تحليل الخطاب، إذ يُفضي بنا المفهومان إلى النظر في البعد التداولي في فهم الخطاب النبوي، وهو ما نلحظه ظاهراً في ربط الخطاب النبوي الشريف بقصد المتكلِّم وفهم المتلقـــي له، بوصف الفهم وما يترتب عليه يمثّل أثـــراً للخطاب فـــي المتلقي، فالحديث النبوي، كما يُشير بعـــض اللغويين[63]، يرتهن في وجوده إلى الوجود الاجتماعي للغة، ما يضع دلالته في بؤرة السياق الاجتماعي؛ لأن هدفه مبنيّ على التواصل، ولا يُطلب فيه الكلام لذاته، وإنما يُطلب لكونه أداة تقوم بنقل الأفكار، وعليْه فإن البحث في مجال الدلالة في الخطاب النبوي الشريف، كما في هذه الدراسة، هو بحث يندرج في سياقه العام ضمن البعد التداولي في دراسة النصوص وتحليلها، وهو ما يُمثل الغاية من المنحى الوظيفي للتحليل اللغوي.

المراجع

1 _ يُنظر: نظريات علم الدلالة المعجمي، ديرك جيرارتس، تر: د. فاطمة علي الشهري، وآخرين، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي/ القاهرة، مصر، ط1/ 2013م. ص 81، وما بعدها.

2 – يُنظر: وظيفة الألسن وديناميتها، أندريه مارتينه، تر: نادر سراج، مركز دراسات الوحدة العربية/ لبنان، طب: 1، 2009م، ص 350.

3 _ اللسانيات والدلالة، د. منذر عيّاشي، مركز الإنماء الحضاري/ سوريا، طب: 2/ 2007م، ص: 80.

4 – يُنظر: علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، د. فايز الداية، دار الفكر المعاصر/ دمشق. طب: 2/ 1996م.

• اهتم محقّق كتاب (تأويل مختلف الحديث) محمد محي الدين الأصفر بتخريج الأحاديث التي وردت في الكتاب وفق المنهج العلمي الصحيح؛ ولذلك سيتمّ الاعتماد في هذا الجانب في البحث على تخريج المحقق للأحاديث.

5 – ينظر: المصدر نفسه، ص 161/ 162.

6 _ يُنظر: مقدمة في نظريّات الخطاب، ديان ماكدونيل، تر: د. عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية/ القاهرة، ط1/ 2001م، ص 27، وما بعدها.

7 _ علم التخاطب الإسلامي، دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، د. محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي/ بيروت، طب 1/ 2006م. ص29، 30.

8 _ في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء، بيروت، طب2/ 2000م، ص 45، 46.

9 _ اللسانيات والدلالة، د. منذر عيّاشي، ص 87.

10 _ المصدر نفسه، ص 88.

11 – يُنظر: تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة الدينوري، تح: محمد محي الدين الأصفر، المكتب الإسلامي/ بيروت، طب: 2/ 1999م، ص 47، وما بعدها.

12 – المصدر نفسه، ص 348.

13 _ يُنظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي/ القاهرة. د.ط، 2000م. ص107.

14 _ اللغة والخطاب، عمر أوكان، أفريقيا الشرق/ المغرب، د.ط/ 2001م، ص 93.

15 – يُنظر: وظيفة الألسن وديناميتها، أندريه مارتينه، ص 296.

16 – معجم لونجمان لتعليم اللغات وعلم اللغة التطبيقي، جاك سي. ريتشاردز وآخرون، تر: د. محمود فهمي حجازي، الشركة المصرية العالمية للنشر/ لونجمان/ مصر، طب1/ 2007م، ص 156.

17 – يُنظر: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

18 – اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، تر: د. عبّاس صادق الوهّاب، دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد، طب1/ 1987م، ص 215.

19 – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

20 – تأويل مختلف الحديث، ص 162/ 163.

21 – يُنظر: تأويل مختلف الحديث، ص 162.

22 _ ورد في كتاب إرشاد الساري للقسطلاني توجيه مماثل لما ورد عند ابن قتيبة. يُنظر: إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، العلّامة شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني، المطبعة الأميرية/ القاهرة، ط7/ 1323ه، ج1/ ص 517.

23 – يُنظر: المصدر نفسه، ص 170.

24 – الحديد، من الآية: 22.

25 – المصدر نفسه، ص 195/ 196.

26 – المصدر نفسه، ص 196.

27 – المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

28 – المصدر نفسه، ص 247، وما بعدها.

• _ يُنظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تح: د. محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة/ القاهرة، د.ط/ 1998م.

29 – يُنظر: نظريّات في الرمز، تزفيتان تودوروف، تر: محمد الزكراوي، مركز دراسات الوحدة العربية/ لبنان، طب: 1/ 2012م، ص 358.

30 – النساء، من الآية: 25.

31 – تأويل مختلف الحديث، ص 277/ 278.

32 – النساء، من الآية: 25.

33 – المصدر نفسه، ص 165.

34 – المصدر نفسه، ص 165/ 166.

35 – المصدر نفسه، ص 166.

36 – البقرة، من الآية: 24.

37 – تأويل مختلف الحديث، ص 166.

38 – المصدر نفسه، ص 189.

39 – النجم، الآية: 14/ 15.

40 – آل عمران، من الآية: 133.

41 – تأويل مختلف الحديث، ص 189.

42 – المصدر نفسه، ص 190.

43 – المصدر نفسه، ص 204/ 205.

44 _ النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبي السعادات ابن الأثير، تح: الطاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي/ لبنان، د. ط/ د. ت، ج3/ ص313.

45 _ الغريبين في القرآن والحديث، أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي صاحب الأزهري، تح: أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز/ السعودية، ط1/ 1999م، ج1، ص1337.

46 – تأويل مختلف الحديث، ص 231.

47 – المصدر نفسه، ص 232.

48 _ تحليل الخطاب، ج. ب. براون، و ج. يول، تر: د. محمد لطفي الزليطني، د. منير التريكي، جامعة الملك سعود/ المملكة العربية السعودية، د. ط/ 1997م، ص35.

49 _ المصدر نفسه، ص 146.

50 _ لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص 52.

51 – يُنظر: تأويل مختلف الحديث، ص 233/ 234.

52 – المصدر نفسه، ص 255.

53 – دينامية النص، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي/ المغرب، طب: 3/ 2006م، ص 196.

54 – في سبيل منطق للمعنى، روبير مارتان، تر: الطيب البكوش/ صالح الماجري، مركز دراسات الوحدة العربية/ لبنان، طب:1/ 2006م، ص 299.

55 – يُنظر: وظيفة الألسن وديناميتها، ص 345.

• هذه الكلمة يبدو أنها سقطت في الطباعة، ورأيت أنها تكمل سياق الجملة.

56 – تأويل مختلف الحديث، ص 167.

57 – المصدر نفسه، ص 168.

58 – المصدر نفسه، ص 168.

59 – نفسه، والصفحة نفسها.

60 – نفسه، ص 171.

61 – نفسه، ص 173.

62 – يُنظر: دينامية النص، د. محمد مفتاح، ص 45/ 195.

63 – يُنظر: اللسانيات والدلالة، ص 115/ 116.

قائمة المصادر والمراجع:

[1]– القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.

[2]– تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة الدينوري، تح: محمد محي الدين الأصفر، المكتب الإسلامي/ بيروت، طبـــ: 2/ 1999م.

[3]- تحليل الخطاب، ج. ب. براون، و: ج. يول، تر: د. محمد لطفي الزليطني، د. منير التريكي، جامعة الملك سعود/ المملكة العربية السعودية، د. ط/ 1997م.

[4]- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي/ القاهرة. د.ط، 2000م.

[5]- دينامية النص، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي/ المغرب، طبـــ: 3/ 2006م.

[6]- علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق، د. فايز الداية، دار الفكر المعاصر/ دمشق. طبـــ: 2/ 1996م.

[7]- الغريبين في القرآن والحديث، أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي صاحب الأزهري، تح: أحمد فريد المزيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز/ السعودية، ط1/ 1999م.

[8]- في سبيل منطق للمعنى، روبير مارتان، تر: الطيب البكوش/ صالح الماجري، مركز دراسات الوحدة العربية/ لبنان، طبـــ:1/ 2006م.

[9]- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطّابي، المركز الثقافي العربي/ بيروت، ط1/ 1991م.

[10]- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي/ الدار البيضاء. المغرب، د.ط/ 1998م.

[11]- اللسانيات والدلالة، د. منذر عيّاشي، مركز الإنماء الحضاري/ سوريا، طبـــ: 2/ 2007م.

[12]- اللغة والخطاب، عمر أوكان، أفريقيا الشرق/ المغرب، د.ط/ 2001م.

[13]- اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، تر: د. عبّاس صادق الوهّاب، دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد، طبـــ: 1/ 1987م.

[14]- معجم لونجمان لتعليم اللغات وعلم اللغة التطبيقي، جاك سي. ريتشاردز وآخرون، تر: د. محمود فهمي حجازي، الشركة المصرية العالمية للنشر _ لونجمان/ مصر، طبـــ: 1/ 2007م.

[15]- مقدمة في نظريّات الخطاب، ديان ماكدونيل، تر: د. عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية/ القاهرة، طب: 1/ 2001م.

[16]- النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، فان دايك، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق/ المغرب، 2000م.

[17]- نظريّات علم الدلالة المعجمي، ديرك جيرارتس، تر: د. فاطمة علي الشهري، وآخرين، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي/ القاهرة، مصر، طبـــ: 1/ 2013م.

[18]- نظريّات في الرمز، تزفيتان تودوروف، تر: محمد الزكراوي، مركز دراسات الوحدة العربية/ لبنان، طبـــ: 1/ 2012م.

[19]- النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبي السعادات ابن الأثير، تح: الطاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، دار إحياء التراث العربي/ لبنان، د. ط/ د. ت.

[20]- وظيفة الألسن وديناميتها، أندريه مارتينه، تر: نادر سراج، مركز دراسات الوحدة العربية/ لبنان، طبـــ: 1، 2009م.